بقلم نقولا حلّيه (دمشق)

ذكر الامر او الحادث او الشخص عاد اليه فتصوّره ؛ والذاكرة هي تلك القوة الباطنية التي وهبنا اياها الباري كي نحافظ على جميع المعلومات حسّيةً كانت ام عقلية ، فنعود اليها ونستعملها عند الحاجة . ولولا الذاكرة لما وجد الانسان سبيلًا الى التقدم ، بل لعجز عن استعمال قواه العقلية ، واصبح كاولئك اللواتي حكم عليهنّ في الازمنة الغابرة بان يملأن اواني لا قعر لها . يضعنّ الماء فيغور ويذهب دون ان يتركنّ اثرًا اثر .

والذاكرة على نوعين : عقلية . وهي من خصال النفس . فلا يمكنها ان تضمحلّ . ولا تؤثر عليها الاسباب والعوارض المادية ، وليست هي التي نبحث عنها الآن . ومادية وهي احدى الحواسّ الباطنية بها علاقة جوهرية بخلايا الدماغ كالمخيلة . ولا فرق بينها وبين الحواسّ الخارجية كالنظر والسمع والشم واللمس والذوق الا انه لا عضو لها يظهر للعيان كالحواس الخمس . ولقد ذهب هذا المذهب فلاسفة اليونان كافلاطون وارسطاطاليس ، وتبعهم فيه القديس توما الاكويني[1] . ثم أيده كثير من فلاسفة القرن التاسع عشر لا بل بالغوا في الدفاع عنه ، وتجاوزوا تعليم من سبقهم ، فعيّنوا لكل من اقسام الدماغ عملًا خاصًا به كذاكرة السمع ، وذاكرة الشمّ ، وذاكرة النظر . واشهر من جاهد في سبيل

1) Aristote et S^t Thomas, *op. de Memoria et Reminiscentia*. Mercier, *Psych.* t.1, n° 128 et suiv. Farges, *Le Cerveau*, p. 188 — 189

هذه الاكتشافات بروكا[1] . فانتصر له كثير من الاطباء والفلاسفة ، ثم ما عتموا ان ادعوا ان في الدماغ خلايا خاصة بالعقل والارادة ، وان جسم الانسان ليس بحاجة الى نفس روحانية غير قابلة الفساد والموت .

ليس من غرضنا ان ننقد هذه الدعايات الواهنة التي من شأنها ان تناصر بدعة من البدع لا العلم الحقيقي . لكن يكفينا ان نعلم ان الذاكرة حاسة مادّية كسائر الحواس الخارجية . وبما انها مركبة من خلايا وانسجة فانها معرّضة للعلل كسائر اعضاء الانسان . لكن هذه الامراض عديدة جدًّا ولها مظاهر مختلفة ، فسوف نبحث عن اسمها ، ثم عن الاسباب التي تؤدي اليها .

انواعها

كل منا ، شئنا ام ابينا ، مصاب بداء ، وان كان لا يهددنا بالموت فهو يضعف قوانا وينغّص كثيرًا حياتنا . فيجبرنا على تدوين العلوم التي نتعلمها ، والافكار التي تخطر لنا ، والاعمال التي نعملها ، الا وهو النسيان[2] . فانه علة كل علم وكل عالم . يقضي على اثمن واكمل ما شاهدناه وسمعناه . ولولاه لكانت معارف كل منا اضعاف ما هي الآن .

وليس النسيان من العلل التي تميّز صاحبها عن غيره ، لاننا كلنا عرضة لهذا الداء ، كما ان ضعف النظر مثلًا علة تمسّ سائر البشر ولو بدرجات متفاوتة . لكن العلة الكبرى هي ما يدعوه الفلاسفة امنيزيا *amnésie* او النسيان الشامل . وهذا المرض اذا مسّ الانسان محا سابقه وكل ما تعلمه وكل ما شاهده منذ صباه ، فيصبح كالورقة البيضاء خالية خاوية . ولقد عرفت احد الاشخاص ، وهو من علماء اللاهوت الادبي المعدودين في عصرنا هذا ، قد مسّ بهذه العلة . فبينما كان سائرًا يومًا ما في شوارع مدينة الجزائر ، وقد اشتدّ الحرّ ، شعر بخمول مدهش وخلوّ رهيب في كل قواه حتى انه نسي اسمه وكنيته وشخصيته .

1) Ribot, *Maladies de la Mémoire*, 14e éd. — Janet, *Etat mental des hystériques*. — Vaissière S. J. *Eléments de Psychologie Expérimental*. p. 124-130

2) Bain, *Sens et Intelligence*, p. 295-304

فكان يسير خطوة بعد خطوة وهو لا يدري اين يذهب . وظلّ هكذا حتى غياب الشمس يسير في شوارع المدينة كأني به ابعد المجانين . اخيراً أتي به الى محل اقامته . وهناك كان يدرس ويطالع دون ان يذكر قطعياً ما كان يكتبه او يطالعه . وبعد شهر عادت اليه ذاكرته بغتة فافاق كمن يفيق من سُبات عميق .

وقد تذهب الذاكرة احياناً شيئاً فشيئاً ، فيضمحلّ اولًا ذكر الاعمال الجديدة والعلوم الاخيرة . ولا يزال هذا الظلّ يمتدّ على سائر تاريخ الانسان حتى يستر ماضيه بغشاء اسود . فكأني به غمامة سوداء تظهر في الافق ، ثم لا تعتم ان تحتلّ جميع جهات السماء . والفرق بين النسيان وهذه العلة هو ان الامنيسيا تأخذ في محو آخر ما تعلمناه من حوادث واسماء وعلوم ، ثم تشمل الافكار والعواطف ، ثم تقضي على العادات التي هي نوعاً ما جوهرنا وكياننا . ولقد تمسّ هذه العلة بدرجة ضعيفة كبراء السن والشيوخ . فما تعلموه وهم صغار لا ينسونه ابداً فكأنه منحوت بالصخر ، لكن ما طالعوه وهم كبار ، وان بالغوا في الانتباه ، يضمحلّ بسرعة عجيبة . ولذا نراهم يتذمّرون من سوء ذاكرتهم ويصفونها بالخيانة . واما النسيان فلا يشمل الا جزءاً من معلوماتنا القديمة او بعض شذرات مبعثرة قضت عليها السنون .

ذكرنا في اول هذا المقال ما ادعاه العالم الافرنسي الشهير « بروكا » في الذاكرة المحلية . وان كنا لا نسلّم تماماً بجميع ما يدعيه ، لا بد لنا ان نعترف بان الانسان قد يُضيع احياناً ذاكرة بعض الحواسّ دون غيرها . وقد اكتشف هذا العالم ، بعد تشريح عليل يدعى « لوبورني Leborgne »[1] قد فقد بغتة استعمال الكلام ، ان قسماً من دماغه قد ارتخى وذبل كالتفاحة اذا انقضت عليها اسابيع . ثم تلا هذا الاكتشاف اكتشافات غيرها اثبتت ان كثيراً من العلل والامراض التي تعتري الانسان في حواسّه الخمس كالطرش والخرس والعمى وغيرها ليست مسببةً عن خلل يطرأ على الاعضاء او على الاعصاب لكن عن فقدان ذاكرة هذه الحواس .

1) Dagnan-Bouveret, *Aphasie et Localisations cérébrales*, (1908) p. 468

. فمنها فَقْدُ ذاكرة الكلام . فان الطبيل يسمع بكل دقة ما يقال امامه لكنه لا يفقد بتاتاً معنى هذه الدمدمات التي تبلغ اذنه . وقد يحدث انه هو ذاته يصبح كالاخرس . فيردد لسانه الحروف والمقاطع دون ان يذكر ما هي الاصوات التي تركب الكلمة الفلانية . ومنها فقد ذاكرة الكتابة ويدعونها « اغرافيا *agraphie* » اذ يضمحل معنى سائر الاشارات لا الكتابية فحسب لكن الطبيعية ايضاً . فلا يعرف الطبيل ان الدخان يدلُّ على النار ، وان الابتسام يعني الفرح . ومنها فقدُ ذاكرة اسماء الاعلام ، او بعض صور ومخيّلات خاصة بحقبةٍ من العمر ، او بمكان قضى فيه الطبيل بعض سنوات . وقد تتعدّد هذه الامراض الخاصة فتكون تارة شاملة العواطف وطوراً التصوّرات ، تارة الازمنة وطوراً الامكنة . فلا يفرقُ العامة بينها وبين الجنون وضعف العقل . ولقد يصيب الشعب في هذا ، لان الجنون في الغالب لا يكون الا خللاً يعتري الذاكرة . بما ان العقل غير ماديّ وليس قابل الامراض .

لقد ذكرنا الحوادث التي تختل فيها الذاكرة وتضعف وتضمحل . بقي علينا ان نذكر الامراض التي تزيد هذه القوة الحسية الباطنية جلاء ووضوحاً وشمولاً . فمنها « الابرمنيزيا *hypermnésie* » وهي علة تعتري الذين يموتون غرقاً او خنقاً . فتظهر لهم عند ساعتهم الاخيرة جميع الاعمال التي عملوها والمناظر التي شاهدوها والاصوات التي سمعوها ، منذ نعومة اظفارهم اي من السنة الرابعة او الخامسة الى هذه الساعة المشؤومة . واحياناً هذه الذكرى قد تكون محصورةً بحقبةٍ من العمر او بنوع خاص من الشعور او الصور او بسيرة بعض الافراد[1] . وسبب هذه العلة هو ان الدم الذي يجري في عروق الانسان يصعد بغتةً الى الدماغ فيهيج الخلايا والانسجة ويدفعها الى عمل شاقّ متواتر . فكل ما كان منسياً يظهر وكل ما تحته الاعوام يتجلى ويشعّ كالنور في الظهيرة وقد ذكر بعضهم لهذا الانبعاث الاخير اسباباً نفسية ليست من غرضنا الآن .

---

1) Ribot: *op. cit.* p. 139

وقد يحدث لبعض الافراد انهم كلما عاينوا شخصاً او سمعوا بحادثة او شاهدوا منظراً خُيّل اليهم ان لهم به علماً سابقاً . وهذه العلة قد تكون مستمدة عن خلل يحدث في الدماغ اذ تُخلطُ مما ذكريات الماضي والصور الحاضرة. فيظن العليل ان الامور الحاضرة قد سلفت منذ ايام واعوام ، لا يدري عددها وان الامور الماضية حوادث حاضرة.

اسبابها

تلك هي الامراض التي تعتري الانسان في ذاكرته . وليست بالمستهان بها. لانها ، وان كانت بعيدة عن الجنون الحقيقي الشامل ، تُفسدُ حياة الانسان وتجعله غير صالح للاعمال العقلية . فلا يُحسن قيادة نفسه ، ولا يستطيع ان يضع صلةً بين ابسط الاعمال . ولكي يتحاشاها الانسان لا بدّ له ان يعرف اسبابها فيبتعد عنها.

لقد اختلف الفلاسفة في اسباب هذه العلل . لكن اغلبهم يجمعون على انها تحدث بعد خلل يعتري خلايا الدماغ . وهذا الخلل هو اما تهشم او فساد او جنس آخر من بلاء الانسجة يحدث بعد طوارئ طبيعية مادية او نفسية.

حدث لي يوماً اني كنتُ في احد شوارع دمشق اسير ببطء على الرصيف وبيدي جريدة اطالعها . واذا بمثال يجوز بالقرب مني ، وعلى عاتقه اخشاب خشنة . وبينما هو عابر بسرعة اصابتني تلك الاخشاب فوقعتُ وصادف رأسي حجراً هناك . فنهضتُ وذهبتُ الى احد المخازن . وهناك استرحتُ قليلاً ثم غبت عن رشدي . وفي الغد نهضتُ واذا انا بفراشي ضمن جدران غرفتي . فدعوتُ الاقارب وسألتهم عما حدث ، ومن الذي نقلني الى هنا بعد تلك الصدمة العنيفة. فقيل لي : انك انت ذاتك رجعت الى محل سكناك فتزعت ثيابك ونمت . فمن جميع هذه الاعمال لم اذكر شيئاً البتة . لان ذاكرتي كانت قد غابت عنها . فاذاً من اعظم اسباب الامنيزيا الصدمات التي تصيب الدماغ فتزعجه او تحصره او تتلفُ خلاياه . واما السبب الثاني فهو شدة الحرارة . فكما ان اشعة الشمس تُحدث احياناً الموت او الجنون ، فانها تحدث ايضاً ضياع

الذاكرة اذ يرتخي قسم من الدماغ ويُعدمُ وسائط العمل وحفظ الصور .

وغير هذه الاسباب المادية قد تكشف لنا الفلسفة والفيزيولوجية اسباباً اعظم خطورة منها . وهي اولاً تهيج الاعصاب ، والافراط من الملاذ البدنية . فان جسم الانسان آلة في غاية الدقة والشعور كالساعة الصغيرة . اذا اخذنا في تحريك عقاربها او تغيير سير دواليبها لا تُعتمُ ان تأخذ في التقديم او التأخير ، ثم تشذُّ عن القوانين والسنن التي وُضعت لها ، اخيرًا تتكسر وتتهشَّم فلا تصلح الا للعب الاولاد . ثانياً الافراط في استعمال الكحول وسائر المشاريب السامّة . اذ انها تسدل على الدماغ ستارًا يحول بينه وبين الصور والشواعر ، ثم يأخذ السمّ الذي كان منذ حين ينبّه الاعصاب في اتلاف الخلايا والانسجة ، ولا يعتم ان يقضي على الذاكرة فتضمحل وتبيد اليوم بعد اليوم . اخيرًا من الاسباب التي تذهب بالذاكرة الانتقال بسرعة من حالة الحزن الشديد الى حالة الفرح الشديد او بالعكس . اذ يُحدث هذا الانتقال صدمةً في الاعصاب جميعها . ولقد ذكر الدكتور ريبو حادثة امرأة اضاعت ذاكرتها اذ أُخبرت ان ابناً لها قد عُفي عنه بعد ما كان قد حُكم عليه بالاعدام . فنسيت تماماً اسمه وسائر الحوادث التي كانت تطرأ عليها بعد ذاك الخبر . ولقد ذكر غيره من الاطباء والفلاسفة حوادث كثيرة غير هذه تبين لنا ان تهيج الاعصاب الفجائي يؤثر على الدماغ وبالوقت عينه على الحواس الداخلية .

تلك هي الامراض التي تعتري الذاكرة وبعض الاسباب التي تؤدي اليها . لكننا لم نذكر ان هذه العلل ليست بخطورة الجنون ، لان الذاكرة تعود في اغلب الاحيان . وقلما سمعنا ان حادثة امنيزيا دامت العمر كله . ومع هذا لا بدَّ لنا من الابتعاد عن الاسباب التي تقود الى هذه العلة . وخصوصاً ان كانت من الاسباب النفسية والاخلاقية .